د. سيدي محمّد بن مالك

أستاذ محاضر (أ)

قسم اللّغة العربية وآدابها – الملحقة الجامعيّة – مغنية

جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان

"موضوعة الثّورة الجزائريّة في الكتابة الروائية بين التّخييل والإيديولوجيا"

ملخص:

سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نبين الصراع الفكري بين التخييل والايديولوجيا من لب النص الروائي، لان الصّراع الفكري يتجسّد في النّص الروائي، من خلال الشّخصيات اللّغوية الورقية الّتي يُحكِم الكاتب صنعها نفسياً واجتماعياً وأخلاقياً وفكرياً حتّى تضطلع بالتّعبير عن الانفصام الوجوديّ والشّعوريّ الّذي ينتابه حيال العالم الاجتماعيّ؛ فمهما حاول الكاتب تمويه القارئ بتنويع ضمائر السّرد ووضعها على لسان الراوي العليم أو الشّخصية الفاعلة والمتكلِّمة وتقديم خطابات الشّخصية المباشرة وغير المباشرة. لذا فموضوعة الثورة الجزائري لها الكثير في الكتابات الروائية.

الكلمات المفتاحية: الثورة، الكتابة، الرواية، الايديولوجيا.

Summary:

In this research paper, we will try to show the intellectual conflict between fiction and ideology from the core of the fictional text, because the intellectual conflict is embodied in the narrative text, through the paper-based linguistic characters that the writer rules psychologically, socially, ethically and intellectually in order to assume the expression of the existential, social, and ideological schizophrenia. ; Whatever the writer tries to camouflage the reader by diversifying the narrative pronouns and placing them on the tongue of the knowledgeable narrator or the active and speaking personality and presenting the character's direct and indirect speeches. Therefore, the topic of the Algerian revolution has a lot in fictional writings.

Key words: *revolution, writing, novel, ideology.*

تُعدّ الرواية جنساً سرديّاً يشخّص الوجود عبر تطويع اللّغة المعيارية بغرض تقديم واقع متخيَّل يسمو على الواقع الفعلي ويتجاوزه إلى طرح رؤية ممكنة التّحقّق، ذلك أنّ الرواية تضطرب، في تشخيصها للعلاقة بين الفرد والمجتمع، بين وعي قائم يمثّل جملة من الأهواء والهواجس والأفكار والاختيارات والالتزامات والآمال الماثلة في ذهن الفرد الاجتماعيّ ووعي ممكن يمثّل، غالباً، نقضاً للوعي القائم من حيث إنّه يعبّر عن رفض كلّ ما يشدّ الإنسان إلى القيم البالية والآداب البائدة وينشد واقعاً اجتماعيّاً جديداً تعْمُرُه قيم وآداب مختلفة. ويخوض الكاتب، باعتباره فرداً اجتماعياً مثقَّفاً، صراعاً فكرياً وهو يحاول تشخيص الانتقال من وعي قائم مترسّب ومتجذِّر في ذهن الإنسان بفعل ظروف تاريخيّة واجتماعية وثقافية وسياسيّة واقتصادية متعدّدة إلى وعي ممكن لا يحضر إلاّ كحلم جميل يراود خياله ويدعوه إلى ترجمته في نصّ إبداعيّ متخيَّل.

ويتجسّد هذا الصّراع الفكري، في النّص الروائي، من خلال الشّخصيات اللّغوية الورقية الّتي يُحكِم الكاتب صنعها نفسياً واجتماعياً وأخلاقياً وفكرياً حتّى تضطلع بالتّعبير عن الانفصام الوجوديّ والشّعوريّ الّذي ينتابه حيال العالم الاجتماعيّ؛ فمهما حاول الكاتب تمويه القارئ بتنويع ضمائر السّرد ووضعها على لسان الراوي العليم أو الشّخصية الفاعلة والمتكلِّمة وتقديم خطابات الشّخصية المباشرة وغير المباشرة، تظلّ رؤيته للعالم الفلكَ الّذي تحوم حوله الرؤى والإيديولوجيات المشخَّصة في النّص؛ فالكاتب يُخضِع التّعدد الإيديولوجي الموجود في الواقع إلى إستراتيجيّة مسبقة تخدم نواياه وأفكاره.

وتكون الشّخصية المحورية أو البطلة، عادة، هي الممثِّل لشخص الكاتب النّفسي والنّاطق بلسانه والمعبِّر عن وعيه الاجتماعيّ، حيث تدخل هذه الشّخصية في نزاع أفعاليّ وكلاميّ مع الشّخصيات الأخرى لتُعرِب عن تأمّلاتها في الإنسان والحياة، إضافة إلى دخولها في جدال نفسيٍّ حادّ تسائل فيه ذاتها باستمرار رامية إلى نقد آرائها وتصحيح أخطائها وإعادة صياغة خواطرها. إنّ الشّخصية الروائية أيقونة أدبية يتوسّل بها الكاتب التّلميح أو التّصريح بحقيقته الّتي تتوزّع بين الصّراع الخارجي مع المجتمع والعالم والصّراع الداخلي مع مبادئه وإنسانيته.

ويكاد يغلب على وعي الشّخصية المحوريّة أو البطلة، في عُرف النّقاد الاجتماعيّين، البعد الإشكاليّ الّذي يجعلها أسيرة أحلام لا تستطيع تحقيقها في أرض الواقع (واقع الرواية طبعاً) بسبب تذبذبها بين الإرادة والفعل، وبين النّية والعمل، ذلك أنّ ظهور الرواية قد ارتبط بالبرجوازيّة الّتي نبذت القيم الأصيلة نظير السّماحة والمحبّة والخير والعدل والإيثار والتّعاون وراحت تشيع، في المجتمع، قيماً جديدةً هي قيم السّوق الّتي سلبت الفرد كرامته وحريّته وحوّلته إلى آلة منتِجة ومستهلِكة؛ فاعتراه التحجّر ولازمه الاغتراب

واكتنفه اليأس، ولم يُلْفِ حلاً سوى البحث عن قيمه الأصيلة الّتي ضيّعها المجتمع؛ بحثاً يفتقر إلى العزم والحِرص. من هنا، كانت الرواية "قصّة بحث متدهور (يُسمّيه لوكاتش "جنونياً")؛ بحث عن قيم أصيلة في عالم متدهور أيضاً، لكن في مستوى آخر متقدّم عليه وبصيغة أخرى" (1). ومثالها رواية "**التّربية العاطفية**" لـ "**فلوبير**" الّتي تعرض للانقسام الّذي تعيشه الشّخصية الإشكالية بين رضاها بما يجود به الواقع واستحالة الثّورة عليه في الآن ذاته.

وتمتاز الشّخصية الإشكالية عن سواها من الشّخصيات الروائية بإحساسها المرهف الّذي يجعلها لا تقوى على تحمّل تعقيدات الحياة وتناقضات المجتمع؛ فتلوذ بالماضي والشّعر والفنّ لتستحضر معاني الفِطرة والطّيبة والجمال والانسجام والتّوافق الغائبة أو المغيَّبة عن العالم ولتحتميَ بها من الخوف والوحشة اللّذيْن يُثيرهما الواقع في نفسها، وكأنّها تنشد اللُّحمة مع المجتمع مثل ما تُجسِّده الملاحم القديمة ويشخِّصه الشّعر والفنّ؛ تلك اللُّحمة الّتي انفصمت عُراها بسبب قيم السّوق الّتي "أفسدت" الدّهر وأخضعت الشّعر والفنّ نفسيْهما لقانون العرض والطّلب.

والشّخصية الإشكالية، لذلك، لا تريد الانغماس في الواقع ولا تروم تغييره فعلياً، لأنّ التّفكير في التّعقيدات والتّناقضات يستنفد وقتها والتّنظير للحلول والمشاريع يستهلك طاقتها. إنّ الشّخصية الإشكالية، بلا شكّ، تتمتّع بالاستقامة ودماثة الأخلاق، ولكنّها تتمتّع، على وجه الخصوص، بالقدرة على إدراك جوهر التّعقيدات وأصل التّناقضات، وهو ما يؤهّلها لأن تمثّل ضمير الكاتب في النّص الروائي، "كما لو كان الوعي الإشكاليّ يُوحّد، بشكل لا متكافئ، بين البطل الإشكالي والمبدع الّذي همّشته الحياة بسبب وعيه الإشكاليّ" (2).

ولكنّ إشكاليّة الشّخصية لن تطول بعد أن تكتشفَ البنيوية التّكوينية احتمال تغيير الفكر والحسّ والإرادة عن طريق الإيديولوجيا الثوريّة الّتي أرسى مداميكها ماركس وإنجلز في مجال الاقتصاد السّياسي؛ فقد سعى أحد أهمّ رائديْ هذه النّظرية، وهو غولدمان، إلى تأكيد حضور الرؤية الثّورية، الّتي تُنتِجها الشخصيّة الإيجابية، في عدد من الروايات الغربيّة مثل روايتيْ "**زمن الازدراء**" و"**الأمل**" لـ "**أندريه مالرو**"، حيث إنّ هاتيْن الروايتيْن تشخِّصان النّضال الثّوري الّذي تخوضه شخصيات تنتمي إلى فئات اجتماعية مختلفة يجمعها رافد الثّورة الّذي تمثّله الطّبقة العاملة والحزب الشيوعي.

ومن ثمّ، فإنّ الإيديولوجيا الثّورية، في نظر صانعيها ومعتنقيها، هي رؤية فلسفية للمجتمع والعالم تنطلق في تفسير الوجود الإنساني من أنّ الصّراع هو الّذي يؤسّس تاريخ البشر وأنّ البروليتاريا أو الطّبقة العاملة هي طبقة اجتماعية تستطيع دون سواها من الطّبقات فهم الاختلالات والانقسامات الاجتماعية وإقامة مجتمع جديد تنتفي فيه الصراعات الطّبقية الّتي يُحفِّزها التّشيّؤ، وهذا المجتمع هو مجتمع الكادحين الّذي يؤلّف طبقة عالميّة.

غير أنّ الرؤية الثّورية ليست رؤية خاصّة بالطبقة العاملة فحسب، بل هي شعار المُضطهَدين والمقهورين والمُهمَّشين في العالم؛ فقد عرف مصطلح الثّورة انزياحاً عن مدلوله الماركسيّ ذي الصّفة الكونيّة إلى مدلولات دينية وقومية ووطنية. وهذا ما ينطبق على الثّورة الجزائريّة الّتي أخذت، في البداية، بعداً دينياً ووطنياً قبل أن تتحوّل إلى ثورة اشتراكيّة تبدّت، بعد الاستقلال، في محاربة الاستغلال والتّخلّف والجهل من خلال الثّورات الزراعية والصناعيّة والثّقافية، بل إنّ الثّورة الجزائرية قد سلكت، في خضمّ التّحولات التّاريخية، مساراً قومياً وعالمياً بمعاضدتها لحركات التّحرر في الوطن العربيّ والعالم كلّه.

1 – الثّورة الجزائرية موضوعاً وموضوعةً:

حظيت الثّورة الجزائريّة باهتمام الروائيّين الّذين راموا التّأريخ، سردياً، لمرحلة هامّة وحسّاسة من وجود الأمة الجزائرية الضّاربة بجذورها في أعماق التّاريخ الإنساني عبر مجموعة من النّصوص الإبداعية الّتي فاق احتفاؤهم فيها بالثّورة احتفاءَهم بموضوعات أخرى نظير الخصاصة والبطالة والتّخلّف والعنف والإرهاب والفساد وسواها من الموضوعات الّتي أرّقت مضاجع الروائيّين الجزائريين باعتبارهم النّخبة المثقّفة القادرة على استكناه أسباب الاضطرابات والتّناقضات الحاصلة في المجتمع. بل إنّنا نُلفي بعض الكتابات الروائيّة قد جعلت من موضوعة الثّورة التحريرية ثمّ من موضوعة الثّورة الزراعية موضوعة أدبية مركزيّة تتضمّن موضوعات فرعية كالاستغلال والمحاباة وأزمة السّكن والإيمان بالقدرية والتّواكل، حيث إنّ استلهام روح الثّورة وتحقيق الثّورة الزراعية، في رأي المرحوم **عبد الحميد بن هدوقة** مثلاً، هما البلسم الشّافي من تلك الأمراض الاجتماعيّة.

ويجوز لنا تبرير انكباب الروائيين الجزائريين على تشخيص موضوع الثّورة التّحريرية ذي الخاصية الواقعية والتّاريخية في شكل موضوعة روائيّة تمتاز بالتّخييل الأدبي والتّشكيل الجماليّ بالقول إنّ ذلك كان من قبيل التّعريف بعظمة هذه الثّورة وفرادتها في تاريخ الثورات العالميّة. ولكنّنا سنحذر من تبرير

انكبابهم على تشخيص الثّورة الزراعية حين نعلم أنّ "السّلطة كانت تمارس تحكُّماً قويّاً في مجريات الأحداث الريفية بواسطة الثّورة الزراعية، وفي الاستحواذ على الرّأي العام داخل المدن عن طريق الجامعات والمعاهد العليا والإعلام، بصفتها وسائل دعائية قويّة وفعّالة في استقطاب اهتمامات الذّات الوطنية المتحكِّمة فيها أطر معرفيّة تنتمي، في تصنيفها، إلى التّعلّق بالأرض، وبالموت دون الشرف والحرية، وقد يكون ذلك التّحكّم هو الّذي أعجز حركية الزّمن السياسي وآلياته عن جرّ الذّات الوطنية نحو الابتعاد عن التّعامل وفق تلك القيم والرموز، لأنّ هذه القيم هي الّتي أملت على الرعيل الأوّل لثورة التّحرير الكبرى أن يجعل الدّفاع عن الأرض وحماية الدين مبدأيْن أساسييْن من مبادئ هذه الثّورة. فلا غرابة إذن، إن كان محور الأرض هو الّذي تكثّف حوله زمن الخلق، وإن كان عنصر الدّين هو الّذي زوّد زمن الخلق بالجدّة في الطرح وفي الرفض للبديل عنهما" (3).

من هنا، غلبت على طرح موضوعة الثّورة الزراعية، في سبعينيات القرن العشرين، النّزعة الإيديولوجية الّتي اتّصفت، عموماً، بالإشادة بجدوى الفكر الاشتراكيّ وتمجيد الخطاب السّياسي والتّركيز على محاسن المشاريع الّتي اعتزمت السّلطة تطبيقها. فيما تخلّلت طرح موضوعة الثّورة التّحريرية نزعة إنسانيّة أضفت على الفعل الثّوري قداسةً، دون إغفال الحديث، العابر غالباً، عن بعض الأخطاء الّتي صاحبت تحرير الأرض والإنسان من أغلال الاحتلال الفرنسيّ، وهي أخطاء لا تسلَم منها أيّ ثورة تنشد التّغيير الجذريّ للأوضاع والأفكار. غير أنّ الرؤية الإبداعية للثّورتيْن التّحريرية والزراعية ستعرف تحوّلاً في التّخييل والتّشكيل مع انعتاق الروائي من أسر الرؤية الإيديولوجية الواحدة وسلطة لغتها الدعائيّة والتّوجيهية، حيث سيمتزج التّخييل بالنّقد، وتتشكّل الإيديولوجيا بجمالية اللّغة.

2 – أطروحة الثّورة والتّخييل:

لقد كانت الثّورة التّحريرية وما تزال، إذاً، المعينَ الّذي يغترف منه الكتّاب الجزائريّون مادة نصوصهم الروائية؛ فمنذ أن ألّف **ابن هدوقة** رواية "**ريح الجنوب**"، الّتي تُعتبر أوّل رواية جزائرية مكتوبة باللّغة العربية تستجيب لشروط الكتابة الروائية على صعيديْ البنية والدلالة، مارست موضوعة الثّورة حضوراً طاغياً في المشهد الروائي والنّقدي على حدّ سواء، حيث أثارت هذه الرواية ومثيلاتها الكثير من الأسئلة النّقدية الّتي غلب عليها الطّابع الإيديولوجي الدعائي المتوجه نحو شرح المضامين الاجتماعيّة وتفسيرها تفسيراً طبقياً يركن إلى رؤية للعالم تتّسم باليقينية والشّمولية باجتزاء المقاطع السّردية الدالّة على الصراع الطّبقي بين طبقة برجوازيّة استعمارية خلّفت وراءها جماعة من الإقطاعيين الجزائريين الّذين تمكّنوا من

التغلغل في بعض المصالح الحكومية وطبقة العمّال الصّاعدة الّتي تشرئب لوضع أسس نظام جديد يقوم على العدالة الاجتماعية.

وبهذا الشّكل، غدت الرواية الجزائرية، بتشخيصها للثّورة التحريرية والدفاع عن مكتسباتها ومباركة مشاريع السّلطة الفتيّة وتثمين قراراتها السياسية، رواية أطروحة **Roman à thèse** لا يستنكف كاتبوها من إظهار انتمائهم للفكر الاشتراكي في ثنايا نصوصهم الإبداعية بأسلوب يبرز تسلّط هذا الفكر على التّخييل الأدبي وعلى متخيّله معاً. وتمتدّ سلطة الأطروحة لتطال متلقّي هذا التّخييل، حيث يبتغي الكاتب بتشخيص أطروحة ما تحويل تسلّطها عليه إلى القارئ، وكأنّه يروم الدخول في تواصل فكريّ ينقل فيه معرفته الإيديولوجية أو العلمية أو الدينية أو الفلسفية المشتغِلة كسلطة إلى المتلقي بهدف تلقينه وإقناعه .(4)

ويتوسّل ابن هدوقة، لتشخيص الثّورة والدفاع عنها والتّنبيه إلى خطر الإيديولوجيات الأخرى الّتي ترمي إلى تقويض أركان الدولة الجديدة في رواية "**نهاية الأمس**"، لغة سهلة لا تتطلّب إعمالاً للذّهن من أجل فهم معانيها العميقة وحبكة بسيطة لا تستغلق على القارئ إذا ما جرّب ترتيب مادتها الحدَثية وأسلوباً في السّرد يعتمد على التّسلسل **Enchainement** الّذي نُلفيه في الحكاية مع توظيف اللّواحق **Analepses**، في بعض الأحيان، لإلقاء الضّوء على ماضي الشّخصية الرئيسة واستعمال ضمير الغائب الدّال على حضور ذات شاهدة على الأحداث وعليمة بأفكار الشّخصيات ونواياها وأفعالها؛ هذه الذّات الراوية الّتي تحرص على تقديم "البشير" كشخصية ملتحمة مع نفسها فكراً وسلوكاً وتصبو إلى الالتحام مع المجتمع مرّة أخرى بعدما أعيتها الحياة في المدينة بزيفها ورياء أهلها؛ فالبشير يريد العودة إلى القرية ليُجسِّد حلمه الاشتراكيّ الّذي حارب من أجله المحتل الفرنسيّ وكابد في سبيله آلام الفراق ونوازل الأسى والحيرة، حيث يعتقد "أنّ البدأة الحقيقية لكلّ إصلاح هي إعادة النّظر في قضية الملكية. لا يُمكن أبداً أنّ تتحقّق ديموقراطيّة في التعليم أو في العمل أو في السياسة ما لم تتغيّر هذه الأوضاع الظّالمة لملكية الأرض. حتّى التّصنيع نفسه مرتبط بالأرض" (5).

ولهذا، يستلزم الحديثُ عن الثّورة الزراعية الحديثَ عن الثّورة التحريرية، وهما حديثان إيديولوجيان لا شكّ ونصيب التّخييل من الخطاب الأدبيّ الّذي يحويهما يسير. ولكنّ الحديث الأوّل يفرض بكثافته وسعته حضوراً آنياً في حيّز الرواية، بينما يُحيَّن الحديث الثّاني عبر شهادة الراوي الّذي يُفعِّل ذاكرة "البشير" فتجود بأحداث تفيد في بناء حاضر الشّخصية ورؤيتها للعالم. يقول الرّاوي: "وتحلّق به الذكريات

من جديد: إلى تونس حيث حُمِلَ إليها جريحاً. ويعلم الله ما قاساه من أتعاب وأهوال حاملوهُ... ثمّ إلى ألمانيا الشرقيّة... وتمضي الأيام متشابهة في العلاج أوّلاً ثمّ في التّمرين على السير، ثمّ في النّقاهة. وتطول الأيّام حتّى لكأنّها القرون! وتنقطِع نهائياً أخبار الزّوج الرؤوم وطفلها المنتظر (...) ويدبّ اليأس مع الأيام إلى نفسه فيحتلّ ثناياها ثنياً فثنياً حتّى لا يبقى منها إلى الأمل في اللّقاء مقرّ. ويزهد في نفسه وفيما حوله. تحاول تلك الفتيات الشّقراوات الألمانيات تهوين الأمر عليه، وإدخال السّرور إلى نفسِه ما وجدن إلى ذلك منفذاً (...) ولكنّ تحبُّبَهنّ وتقرُّبَهنّ ومحاولاتهنّ المستمرة في التّخفيف وإرجاع الأمل إلى نفس مريضهنّ لم يكن مُوفَّقاً دائماً. فقد كنّ ينجحن يوماً ويخفقن أيّاماً. كان المريض متمرّد الروح عنيد الطبع. وكانت زوجُه الحُبلى البعيدة تقف حائلاً بينه وبين جميع النّاس!" (6).

كما يعمِد الراوي، لبيان أهمية الحديث عن الثّورة التحريرية ووظيفته في بناء حبكة النّص، إلى تكثيف الحوافز المشكِّلة لتلك الموضوعة من خلال تأطير **Encadrement** أو تضمين **Enchâssement** مجموعة من القصص الفرعية في الفصل الثالث من الرواية يكشف فيها الرّاوي بعض الوقائع الّتي ظلّت سرّاً في خَلَد "رُقيّة" زوج البشير، ويتباهى بمعرفته بالعادات والتقاليد والاعتقادات والأباطيل الشّائعة في القرية، وينتقد بعض المفاهيم الّتي استوطنت عقول الناس فيها نظير مفهوم الشّرف. وهذه القصص الفرعية هي: قصّة ما قبل زواج "البشير" و"رقيّة"، وقصّة زواجهما، وقصّة حمل "رقيّة" ووضعها وعذابات المخاض والفراق، وقصّة اغتصابها من قِبل جنود الاحتلال، وقصّة إطّلاع "الشّيخ حمّودة" والد "البشير" على قصّة الاغتصاب، وقصّة استشهاده، ثمّ قصّة استشهاد" العجوز سعدية" والدة "البشير".

ويسعى الراوي، بحديثه عن الثّورة التّحريرية ارتدادياً تارة وتكثيفاً تارة أخرى، إلى التّفرّغ لسرد يوميات "البشير" في القرية الّتي تتّسم بالصّراع مع "ابن الصّخري" الّذي يمثّل الفكر الإقطاعي القديم المتجدّد؛ القديم من حيث الرؤية الّتي توجّه علاقة الشّخصية الإقطاعية بالآخرين الّذين هم أدوات طيّعة تخدم مصالحها ولا تستطيع معارضة مشاريعها والحدّ من طغيانها ومحاربة نزواتها، والمتجدّد من حيث اصطناعُ الشّخصية الإقطاعيّة صورةً مغايرةً لتلك الّتي يظهر بها، عادة، هذا الضّرب من الشخصية وهي صورة المحافظ والجشِع والأناني والمراوغ والغليظ كما يجسّدها "عابد بن القاضي" في "ريح الجنوب"؛ ف "ابن الصخري" يتظاهر بالتقوى والورع بترتيله للقرآن الكريم مع الإمام بالجامع كلّ مساء، ويساهم في خليّة الحزب بالقرية، ويشارك في الثورة التحريرية بماله وأولاده، ويبدي اعتدالاً في حياته الأسَرِيَة كما يعكسه ثياب ابنته وأثاث بيته.

والراوي إنّما يقصر الصراع بين هاتيْن الشّخصيتيْن المنتجتيْن لإيديولوجيتيْن متناقضتيْن، فلكي يبرز الخطر الّذي تمثّله الإيديولوجيا الإقطاعية على المجتمع الاشتراكي الّذي بدأ يتكوّن حديثاً. هذا المجتمع الّذي يساعد "البشير" في عمليّة إصلاح الأوضاع الاجتماعية بالقرية كما يمثّله المجاهد "بوغرارة" وصاحب المقهى والمهندس والأكاديمية والبلديّة. ويشير الراوي، في الوقت نفسه، إلى خطر "الشّيخ" الّذي يتحالف مع "ابن الصّخري" ضدّ "البشير"؛ فخطره نابع من رؤيته النافية للآخر الّذي يمثّل، في نظره، الكفر والإلحاد. وهو ما يدفع "البشير" إلى التّوجس من الدّور الّذي يضطلع به "الشّيخ" بقوله على لسان الراوي: "بقدر ما كان هذا النّمط من النّاس أثناء الاحتلال عاملاً من عوامل الحفاظ على الشّخصية وعدم الذّوبان في المستعمِر بقدر ما سيكونون في المستقبل عرقلةً في وجه كلّ إصلاح وحاجزاً أمام كلّ تقدّم" (7).

إنّ عناية الراوي بآنية الثّورة الزّراعية واستحضاره من حين إلى آخر للثّورة التحريرية يعبر عن الارتباط الحثيث بين الماضي والحاضر، حيث لا يُمكن بناء مستقبل اشتراكيّ إلاّ بتضافر هذيْن الزّمنيْن المتواصليْن تاريخياً وإيديولوجياً. وهو ما يجعل شخصيّة ملحميّة مثل "البشير" مؤهَّلة للنّهوض بهذا البناء، لأنّها تجمع بين الزّمنيْن رغم الانقطاع الزّمني والفكري الّذي وسم وجودها حين استسلمت لإغراءات الحياة العصرية في المدينة، ورغم أنّ "البشير" يلوذ بالقرية من أجل تلقين الأحداث أبجديات القراءة والكتابة وتغيير الذّهنيات الّتي استغرقها الإيمان بالقدريّة والانتهازية والتّخلّف والجهل، لكنّه يهتدي، بعد معاينة واقع القرية المتخَم بالاستغلال والبطالة والخمول، إلى أنّ "المدرسة الجزائريّة الحقيقية هي تلك الّتي ستُخلَق يوم أن تبرز القرى الزّراعية إلى الوجود" (8).

وبهذا الشّكل، تمثّل رواية "**نهاية الأمس**" توقَ "**ابن هدوقة**" إلى انبثاث النّظام الاشتراكيّ، الّذي اقتنع به ودافع عنه في منابر الحزب وفضاء الإبداع منتقداً بعض أخطائه هنا وهناك، في المجتمع الجزائري كبديل عن النّظام الإقطاعي الّذي يُعدّ سبب التّدهور الاجتماعي والاقتصادي والثّقافي. وهو توق يعكس وعياً ممكناً لم يستتب بعد، لأنّ الإقطاع مازال يملك إمكانات تسمح ببقائه ولو إلى حين، ولأنّ تحالف "الشّيخ" معه يقف عائقاً أمام اكتمال اللّحمة الاجتماعية.

3 – أطروحة الثّورة وأطروحة الرواية:

وتكاد تنفرد رواية "**طيور في الظّهيرة**" لـ "**مرزاق بقطاش**"، فيما نعلَم، بالحديث عن آنية الفعل الثّوري التحرّري من خلال وعي الطّفل "مراد" الّذي يُطوِّعه الكاتب تطويعاً إيديولوجياً لا يخرج عن دائرة ما

وقر في عقله وقلبه من التزام بالدّين وحبّ للوطن، حيث يتضافر الإسلام والوطنيّة، وهما عاملان متأصّلان في الإنسان الجزائري، في تأليف نظرة **بقطاش** للثّورة الّتي يعكف على تشخيصها في باكورة أعماله الإبداعيّة.

والكاتب إذ يعزو رؤيته هذه إلى شخصية لم يستوِ عودها من حيث النّضج الإيديولوجي والممارسة السّياسية، فهو يبتغي التنصّل من سلطة الإيديولوجيا السياسيّة الّتي أرادت أن تضفيَ على الثّورة بعداً اشتراكياً تبرّر به ثورتيْها الزّراعية والصناعية خاصّة، والإعراب، في الآن نفسِه، عن رضاه بسلطة الثّورة باعتبارها عقيدة وممارسة غير وافدتيْن أو دخيلتيْن على المجتمع الجزائريّ، وكأنّه، باستثماره شخصيّة غير راشدة لم تطمس جِبِلَّتَها مثاليةُ الإيديولوجيا أو نفعيتُها أو هما معاً، يروم التّأكيد على عفوية هذه الثّورة وبراءتها من التّلفيقات الإيديولوجية والحسابات السّياسية الّتي بدأت تلوح مع فجر الاستقلال، تماماً مثل عفويّة الطّفل "مراد" وبراءته في تلقّف أخبار الثّورة واستقبال أصدائها؛ فهي مجرّدة، لديه، من أيّ تفسير طبقيّ يختزل الصّراع بين الأصيل والدّخيل إلى نزاع ماديّ محموم حول موضوع الأرض، بل إنّ التّفسير أو التّقدير، على الأصحّ، الّذي تهتدي إليه الشّخصية هو تقدير ينبني على شعور داخليّ يُخالجها حيال ما تراه يومياً من فوارق واختلافات جوهرية بين قيم الإنسان الجزائري وقيم الإنسان الأوربي؛ فتخلص، بذلك، إلى أنّ الصّراع مع الآخر هو صراع دينيّ بين "النّجمة" و"الصّليب" من جهة، وصراع بين جنس العرب وجنس الأوربيين من جهة أخرى.

ثمّ، إنّ الكاتب يحاول التّأصيل للثّورة الثقافية، الّتي نهضت السّلطة بعد الاستقلال بتطبيقها عبر سياسة تعميم التّعليم ومجانيته وسياسة التّعريب، حين يجعل الامتناعَ عن تعلُّم اللّغة الفرنسية من صميم الجهاد ضدّ الاحتلال؛ فقد تناهى إلى سمع "مراد" وهو يندسّ بين التّلاميذ الّذين يفوقونه سنّاً خبر "قرار خطير اتّخذه المجاهدون، وهو أن يكفّ أبناء الجزائريين عن تعلُّم لغة العدو. وتعجّب كيف أنّه لم يسمع بمثل هذا القرار في الحيّ، ربّما لأنّه معزول عن بقيّة الأحياء الأخرى، أو لأنّه بعيد عن قلب المدينة! لعلّ هذا القرار اتّخذ أخيراً، وإلاّ لكان قد سمع به وهو أطفال الحيّ جميعاً. يستحيل أن يصدر المجاهدون قراراً ويبقى مقصوراً على ناحية واحدة من المدينة" (9). وبالتّالي، يُنزِل "**بقطاش**" موضوعة الثّورة التّحريرية منزلتها الطّبيعية وهي المنزلة الإسلاميّة والعربيّة والوطنيّة بالجمع بين الجهاد بالنّفس من أجل استرداد الأرض وصون الدّين والعِرض ومحاربة مظاهر التّغريب الفكري بالكفّ عن تعلّم لغة المحتل. وهو، حينئذٍ، يُسلِّم بسلطة الأطروحة (أي سلطة الثّورة) ويرفض أطروحة السّلطة (أي اشتراكيّة الثّورة) في هذه الرواية.

ومن أجل تشخيص رؤيته للثّورة في إطار رؤية شاملة للمجتمع والعالم وتأسيساً على خطاطة روائيّة معدّة سلفاً ، يعهد "**بقطاش**" إلى الراوي العليم بانتقاء الأحداث الّتي تنمّي في "مراد" الإحساس بتميُّزه وبني دينه وجلدته عن الأوربيين وتبعث في نفسه عاطفتيْ الخوف والحقد تجاههم، نظير حدث اقتياد الشبان الأربعة إلى مكان اغتصابهم للفتاة الغجرية بغرض تمثيل الواقعة على مرأى من الشّرطة وسكّان الحي الّذين أبوا إلاّ أن يتعرّفوا إلى مرتكبي هذا الفعل الّذي أثار عبوس الشّرطة وزاد من حقدهم على العرب. وحدث الشجار الّذي وقع بين "نوربير" الإسباني و"والد روني" المالطي والّذي أماط القناع عن حقيقة الأوربيين المتستّرين خلف أخلاق مصطنعة وطيبة مُفتعَلة. وحدث مواجهة "مراد" للمعلّمة اليهودية الّتي "صوّبت نحوه سبابتها متوعِّدة، وسألته: "لم لا تريد أن تتعلّم الفرنسية؟". وأحسّ لحظتها بالدماء تغادر وجهه كلَّه، ثمّ شعر بنظرات زملائه من التّلاميذ تقع عليه، وتحثّه على الامتناع عن الجواب، لكنّه اندفع يُجيبها بقوله: "لأنّني لا أحب الفرنسية". ولم يُكمل جملته تلك حتّى كانت صفعة قويّة تنهال على خدّه، فيسيل الدم من أنفه. وتراجعت المعلّمة وهي تنظر إلى سحنة مراد، والدم الراعف منه. ووقفت مرتبكة فوق المصطبة. ثمّ، إنّ مراد قام من مكانه، واندفع نحو الباب، والدم يسيل على شفتيْه ورقبته. وتبعه التّلاميذ وهم ينظرون بحقد إلى المعلِّمة الّتي وقفت بكماء لا تقوى على القيام بأيّ شيء" (10).

ولكي يحافظَ على تميُّز الشخصية البطلة واتّزانها واستقامتها، يحرص الراوي على بسط انفعالات "مراد" وفق ما طفق يتشكّل في وعيه من التزام بتعاليم الدين الإسلاميّ الّتي تحثّه على إبداء معارضته لأيّ عمل يسيء إلى القيم الإسلامية الّتي تجب مراعاتها قبل الإقدام على تصرّف طائش أو اتّخاذ قرار غير صائب يشوّه صورة الإنسان العربيّ الجزائري، ذلك أنّ "مراد" يحاول تبرير سلوك عبد الله، وهو أحد الشبّان الأربعة الّذين تورّطوا في اغتصاب الفتاة الغجريّة، بدعوى أنّه فتى هادئ ويُقيم الصّلاة ويحفظ بعض السّور القرآنية الّتي علّمه إيّاها هو نفسُه، ولكنّه يتراجع عن ذلك بعدما يوقِن أنّ ما اجترحه ذلك الفتى خطأ لا تمحوه إلاّ التّوبة. ويستهجن انصراف عمّه إلى معاقرة الخمر والحرب قائمة، ويُوقِر "في نفسِه أنّ المجاهدين لم يعملوا على تصفيّة كلّ شاربي الخمرة؛ فالخمرة حرام" (11). ويُنكِر على عجوز قيامها بأعمال السّحر الّتي تُعدّ كفراً يستوجب النّار. وتأكله الحسرة حين يشارك صديقيْه "أرزقي" و"محمّد" سرقة حبّة الجوز الهندي من الدكّان.

ويصدُر "مراد" في ردود أفعاله تلك عمّا أخذه عن شيخ المسجد من آداب إسلاميّة ونصائح دينية، ممّا يشي بأنّ هذا النّمط من الشّخصيات؛ أي الشّيخ، يُعدّ رائدَ الدعوة إلى الحفاظ على قيم الشّخصية

الإسلامية في المجتمع الجزائري الرّازح تحت سلطة غاشِمة تستبيح المحرّمات والمقدّسات، وحاملَ لواء الجهاد كما تعكسه صورة الخطيب الّذي راح يحثّ الرجال والنّساء، بمناسبة الذّكرى الثانية للفاتح من نوفمبر، على مواصلة الكفاح ضدّ الاحتلال الفرنسيّ. أمّا المعلّم فقد بدا حذِراً في تذكير التّلاميذ برمزيّة هذا اليوم تلافياً للمضايقات الّتي قد يتعرّض لها من قِبل لجنة التّربية بالمدرسة؛ فقصارى جهده أن يبثّ في النّاشئة حب الوطن عبر تعليمهم الأناشيد الوطنية.

غير أنّ تقلّبات الحياة ومفاجآتها، كما يومئ الراوي، ستغدو دروساً لا يتعلّمها "مراد" لا في المسجد ولا في المدرسة. وهو ما يُنبئ بإمكانيّة تطوّر فكر الشّخصية مع مرور الزّمن من خلال احتكاكها بالواقع اليوميّ المتجدّد والمتغيّر، ومن ثمّ، احتمال تغيّر الفكر الّذي يحضن الثّورة ويوجّه خطاها نحو بلوغ غايات محدَّدة مستقبلاً. فضلاً عن الإلماح إلى أنّ الوعي الممكن الّذي يذود عنه "**بقطاش**" ويرغب في تحقُّقِه على صعيد الكتابة على الأقلّ، وهو الوعي الديني القومي الوطني، قد تعترضه إشكالات وعوائق تؤخّر أو تحول دون انبثاثه في المجتمع الجزائريّ بعد الاستقلال.

ولا يغفَل الراوي الإشارة إلى أنّ "مراد"، رغم تميّزه ذاك واتّزانه واستقامته، يحب اللّعب ويهاب الكلاب وينتابه التّردّد ويتملّكه الخجل وتعتريه الغيرة وتخذله الحكمة ويعوزه الفعل مثل أيّ طفل آخر. وربّما شكّل ذلك ذريعة لأن يهيمن صوته؛ أي صوت الراوي العليم، على مجموع الأصوات الحاضرة في النّص وتحتكِر رؤيته السرديّة المنظور السّردي؛ إذ نلفيه يُبطئ في السّرد مسترسِلاً في اقتفاء أحداثه المتعاقبة الّتي تجري في حيّ شعبيّ بالجزائر العاصمة من نهاية العطلة الصيفيّة إلى الفاتح من نوفمبر سنة 1956، ويسرع في الوقفات الوصفيّة الّتي كادت تغيّبها سلطة السّرد، ويؤسلِب الخطابات والأقوال عبر تسريدها وعرضها إلاّ ما جاء منها من كلام مباشر على لسان بعض الشّخصيات.

هوامش:

1 – Lucien Goldmann : « Pour une sociologie du roman », Gallimard, Paris, 1964, p 23.

2 – فيصل درّاج: "نظرية الرواية والرواية العربية"، المركز الثّقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط.1، 1999، ص44.

3 – بشير بويجرة محمّد: "بنية الزّمن في الخطاب الروائي الجزائري 1970 – 1986؛ المؤثّرات العامة في بنيتيْ الزّمن والنّص"، ج1، دار الغرب للنّشر والتوزيع، وهران (الجزائر)، د.ط، 2001 – 2002، ص 145، 146.

4 – Susan Rubin Suleiman : « Le roman à thèse ou l´autorité fictive », P.U.F, Paris, 1983. نقلاً عن: "معجم السّرديات"، مجموعة من المؤلّفين، إشراف: محمّد القاضي، الرابطة الدولية للنّاشرين المستقلّين، (تونس، لبنان، الجزائر، مصر، المغرب)، ط.1، 2010، ص 208.

5 – عبد الحميد بن هدوقة: "نهاية الأمس"، الشّركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1975، ص 134.

6 – المصدر نفسه، ص 33، 34.

7 – المصدر نفسه، ص 62.

8 – المصدر نفسه، ص 229.

9 – مرزاق بقطاش: "طيور في الظّهيرة"، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، د.ط، 1981، ص 64.

10 – المصدر نفسه، ص 67، 68.

11 – المصدر نفسه، ص 63.